

بعض مظاهر التنظيم القبلي في صدر الإسلام

أ.م.د عبد الحميد حسين احمد السامرائي
جامعة تكريت / كلية التربية للبنات

المقدمة :

التنظيم القبلي قبل الإسلام ، قائماً على الأساس العشائري ، وتعد القبيلة أساس الكيان السياسي أو الاجتماعي ، الذي ساهم مساهمة كبيرة في الدولة العربية الاسلامية ، التي وضع دستورها القرآن الكريم ووضح نظامها الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) .
واجلى مظاهر القبيلة ، رابطة الدم ، ويخضعون لشيخ واحد ، ينتخب من بين اهل القوة والعزم ويتصف بصفات معينة منها الشجاعة والحكمة والصبر والكرم وغير ذلك ، وصلة الدم عند العرب اوجدت ما عرف بالحسب ، وهو تراث الأباء ، ومن هنا ظهرت بصورة طبيعية ، مسألة جوهرية ، هي مسألة العصبية القبلية لشدة اعتزازه بحسبه ، وكان من نتائجها الحروب التي وقعت بين القبائل العربية .

قسم البحث إلى أربعة مباحث :

أما المبحث الأول : تناولت فيه بما يتصل بالقبيلة ، فألقيت نظرة على الانساب العربية واهميتها ، ثم عرجت الى العصبية القبلية التي تكون جوهر القبيلة ، ثم علاقة هذه العصبية بالواقع السياسي والاجتماعي وعلاقتها بالعقيدة الجديدة ، ثم القيت في نهاية هذا البحث على العادات والتقاليد والاعراف للقبائل العربية .

والمبحث الثاني : بنظم القبيلة حيث قسمتها الى الطبقة الاصلية التي تسمى (الصليبة) ، والطبقة الثانية المسماة (العبيد) ، ثم بينت مزايا كل طبعة ، ووضحت دور الاسلام في الطبقة الاخيرة واهميتها في تحرير العبيد ورعايتهم ، ثم تناولت الاحلاف بشيء من الاجاز ، سواء كانت هذه الاحلاف أحلاف افراد ، او احلاف قبائل ، ووضحت اهميتها والأسباب الموجبة لتلك الاحلاف .

والمبحث الثالث : يتضمن الادارة في المجتمع القبلي ، حيث تتجلى تلك الادارة في شيخ القبيلة واهميته السياسية والاجتماعية ، ثم بيان صفاته ومزاياه ودوره في قيادة القبيلة ، وما ينبغي القيام به في اوقات السلم والحرب ، وما كان يعاونه في مجلس القبيلة في اجتماعاتهم بدار الندوة .

والمبحث الرابع : موقف الاسلام من التنظيم القبلي ، التي تكون جوهر التنظيم السياسي قبل الاسلام ، موضحاً في ذلك موقف القرآن الكريم من جانب وموقف النبي محمد صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده من التنظيم القبلي .

المبحث الأول : القبيلة

كانت طبيعة الجفاف هي الغالبة على الجزيرة العربية ، وكان لهذه الطبيعة اثرها في حياة الناس ، فغلبت حياة البداوة على حياة الاستقرار ، وأثرت في النظم والافكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحربية وفي سائر نواحي الحياة .

وحالت دون قيام المجتمعات الكبرى ، وجعلت من الصعب قيام حكومة تقوم على احترام حقوق جميع ابنائها ، دون النظر الى القبائل والرئاسات ، وانما نشأة فيها حياة البداوة ، المبنية على الحرية في المجتمع ، معتمدين على أنفسهم ، ولا يتقون بغيرهم ، فهم دائماً يحملون السلاح حتى اصبح البأس خلقاً والشجاعة سجية ، يرجعون اليها متى دعاهم داعي واستتفرهم طارئ . ((واهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي ، وبعدهم عن الحامية ، وانتبأهم من الاسوار والابواب قائمين بالمدافعة عن انفسهم ، لا يكونونها الى سواهم ولا يتقون فيها بغيرهم ، فهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق))^(١) .

وبقيت اخلاق القبائل وتقاليدها الى يومنا هذا ، تعمل في تكوين أخلاقنا وثقافتنا ، فالشجاعة وعزة النفس والصبر والتضحية وغيرها من الصفات الكريمة ، فهي صفات منبثقة من المجتمع البدوي للجزيرة العربية^(٢) .

ان النظام السياسي والاجتماعي في البدو والحضر قائماً على القبيلة وكل الشعوب القديمة والحديثة ، التي تمسكت بها ، فألأغريق والرومان في بدء عهدهم ، والنتر غير مرتبطين بألأرض ، لذا ولدت عندهم الحرية التي ترفض التسلط ، فنظم المجتمع اما على اساس الفرد الحر كما في اليونان او العائلة كما في الرومان ، او جمهور المؤمنين كما صار اليه المجتمع الاسلامي^(٣) وسلطة القبيلة فيه .

الرابطه القبليه تقوم على الدم والنسب ، لا على العقيدة ، لذا تقوم القبيلة على تقديس هذه اللحمة تقديساً تلقائياً ، دون الحاجة الى قوة من الخارج ، تقهر الجماعة على التماسك ، فكان حماية القبيلة تلقائياً^(٤) فالعصبية تشبه الشعور القومي في عصرنا الحاضر ، ولكن رابطه الدم فيها اوضح منها في القومية ، فأذن النسب او الاعتقاد به بمثابة الروح التي تجعل القبيلة كالجسد الحي^(٥) ، فالعصبية القبليه شديدة ، تظهر في اقوالهم وافعالهم ، حتى صار من مبادئهم : ((انصر اخاك ظالماً او مظلوماً)) وكان شاعرهم يقول :

لا يسألون اخاهم حين يندبهم للناثبات على ما قال برهاناً^(٦)

وحكومة القبيلة ديمقراطية ، وسلطة شيخها سلطة ابوية ، مشوبة بالعطف ، وكان يجمع رؤساء العشائر التي يتألف منها مجلس القبيلة في الامور الضرورية والمصيرية ، كقرار اعلان الحرب والسلم ، وهذا ما يسمى ((بمجلس الملاء)) وبذلك قامت فكرة الشورى قبل الاسلام^(٧) .

وكانت الاراضي الواقعة في حوزة القبيلة تدعى (الحمى) وهي تتناسب في حجمها وسعتها مع قوة ونفوذ القبيلة ، فذكر ان كليب بن وائل كان اعز العرب ، فقد مد حمايته الى اراضي واسعة ، واسرف في ذلك وبغى ((حتى بلغ من بغيه انه كان يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه ... ولا تورد ابل احد مع ابله ، ولا توقد نار مع ناره))^(٨) .

وكان لسان حال القبائل شعراؤها ، فأذا كان في القبيلة شاعراً ماهراً احضروه في اسواقهم ومؤتمراتهم ، ويجعلون ذلك شرفاً وفخراً من شرفهم ، فكان الشعر يرجعون اليه في احكامهم وافعالهم ، فيه يتخاصمون ، وبه يتفاضلون وبه يمدحون وبه يتعاتبون^(٩) .

اما الاسلام فقد أدخل تعديلات جوهرية على بعض المفاهيم القبلية ، وجعلها تنسجم مع اطار الاسلام فجعل مدار التفاضل بين الرجال على التقوى والايمان لا على الاحساس والانساب ، وأيد الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) شعار العصبية ، لكنه فسر هذه النصرنة تفسيراً اسلامياً بخلاف التفسير قبل الاسلام ، اذ جعل نصرته الظالم أنما يكون بحجزه عن الظلم ، وان الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) لم يبلغ مراتب الشرف الغناء تاماً وانما جعلها متصفة بحسن الايمان وقوة العقيدة ، فحين سأله قوم عن اكرم العرب كان جوابه : ((خياركم في الجاهلية ، خياركم في الاسلام اذا فقهوا))^(١٠) كما اقر التنظيم القبلي في الاسلام بصورة غير مباشرة ، وظهر ذلك في التنظيم العسكري ، وتوزيع العطاء ، فالقبيلة كونت اصغر وحدة عسكرية في ميدان القتال في الجيش العربي الاسلامي ، فأخبار الحروب تدل على ان الجيوش كانت مرتبة حسب القبائل ، وان كان يوجد في كل قبيلة خياله ومشاة ، كما كانت القبيلة تكون اساساً طبيعياً لتوزيع العطاء ، لما كان من تكتل افرادها وتضامن ، ولم تتعد افراد القبيلة المسجلين في ديوان العطاء^(١١) .

ومن العناصر القبلية :

١. الانساب :

النسب هو سبب التعارف وسلم التواصل بين القبيلة التي تتعاطف به الارحام وعليه تحافظ الاواصر القريية . ان صلة الارحام صلة طبيعية لدى ابناء البشر ، ومن صلتها النصرنة لذوي القربى واهل الارحام ، ولأجل هذه الغريزة الطبيعية ، ولأجل اللحمة الحاصلة من الولاء في النسب ، نستطيع ان نفهم قوله (صلى الله عليه وسلم) : تعلموا من النسب ما تعرفون به احسابكم وتصلون به ارحامكم^(١٢) .

ولم يكن النسب ، ذو أهمية على المستوى البشري حسب ، إنما نراه على مستوى الرسالات السماوية ايضاً يقول الله تعالى : ((الله اعلم حيث يجعل رسالته))^(١٣) ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن صفات النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : كيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب قال : كذلك الرسل تبعث في انساب قومها^(١٤) يعني أكرمها احساباً واكثرها قبيلة .

ولما كان النسب على هذه الدرجة من الأهمية ، فلا غرو من ان القبائل والافراد ، تلاعبوا بالأنساب وزوروا لمصالحهم الخاصة ، وادعوا انهم من سلالة الانبياء او المرسلين او الصحابة وانتخذوا الأنساب ، ليزداد نفوذهم او لينالوا منصباً ، او يتخلصوا من بعض الضرائب والاموال^(١٥) .

وأنساب من ناحية الرابطة الدموية يمكن تصنيفه الى ستة طبقات هي : ١- الشعب ، ٢- القبيلة ، ٣- العمارة ، ٤- البطن ، ٥- الفخذ ، ٦- الفصيلة^(١٦) ، وبذلك يقول ابن الكلبي : ((الشعب اكبر من القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم العشيرة ، ثم الفصيلة))^(١٧) . وعموماً تقسم العرب حسب نظرية الأنساب الى :

١.العرب العاربة : وهم القبائل العربية التي سادت ثم بادت واسلفت ومن قبائلها عاد وثمود وطسم وجديس وعملق وجرهم^(١٨) .

٢.العرب المتعربة : وهم ابناء قحطان بن عامر اللذين عرفوا (بالقحطانية) ، وينسب اليهم عرب جنوب الجزيرة .

٣.العرب المستعربة : وهم ابناء اسماعيل بن ابراهيم الذين عرفوا (بالعدنانيين) .

ويلاحظ على جهود النسابة ظاهرتين ، الأولى : جدول الأنساب التي وضعها النسابون ، وهي جداول متصلة من نقطة البداية بعدنان وقحطان ، ثم لا تزال تنمو بالاتجاهين الافقي والعمودي .

والثانية : الأنساب العربية التي تقوم على ظاهرة الابوة ، أي لكل قبيلة أباً منحدر منه بتوالي ابنائه واحفاده وبهم يقوم العمود الفقري للنسب لهذه القبيلة ، وقد تكون هذه القبيلة نواة لقبائل اخرى اصغر منها في الانحدار الافقي والعمودي .

وقد اجمع النسابون على ان اليمن من ولد قحطان الذي ملك اليمن ولبس التاج ، ثم ملك بعده ابنه (يعرب) وهو اول من حياه قومه بتحية الملك^(١٩) ويقول بعض اهل اليمن بأن قحطان من ولد اسماعيل ، وان اسماعيل هو ابو العرب جميعاً^(٢٠) .

اما عدنان فأليه انقطع علم اهل النسب ، حقيقة لما روى عن الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) انه كان اذا انتهى من النسب الى معد بن عدنان امسك ، ثم قال : (كذب

النسابون) وقد رويه انه قال ((عدنان بن أد))^(٢١) وفي ذلك يقول بكلسون : ((ان نسب عدنان لا يزال مثار كثير من الشك ، على الرغم من ان العرب اجمعوا على انه من ولد اسماعيل))^(٢٢) .

وعلى وجه العموم تتوزع القبائل العربية الى قحطانية وعدنانية أما اللقطنانية فهي : جهينة ، عذرة ، كلب ، تنوخ ، حمدان ، جذام ، لخم ، كندة ، طي ، واما العدنانية فهي : عنزة ، بكر ، تغلب ، مضر ، قيس ، تميم .

اما قبيلة قريش التي تنسب الى فهر بن مالك ، وهو قريش ، وفهر لقب غلب عليه^(٢٣) . وقال اخرون ، انهم من ولد النضر بن كنانة ومن فضلهم قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : ((ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى هاشماً من قريش ، واصطفاني من بني هاشم))^(٢٤) .

وكانت قريش تسمى آل الله ، وجيران الله ، وسكان حرم الله ، وفي ذلك يقول عبد المطالب :

نحن آل الله في ذمته	لم نزل فيها على عهد قدم
ان للبيت رباً مانعاً	من يرد فيه بأثم مخترم
لم نزل الله فينا حرمة	يدفع الله بها عنا النقم ^(٢٥) .

٣. العصبية القبلية :

العصبية هي ان يدعو الرجل الى نصره عصبته ، والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا او مظلومين^(٢٦) . وان الحكم لا يتم الا بالعصبية ، فأن كل امر تحمل عليه الكافة ، فلا بد له من عصبية ، وفي الحديث الشريف : ((ما بعث الله نبياً الا في منعة من قومه))^(٢٧) .

والعصبية في المجتمع القبلي لا تكون لقرابة الرجل وذوي رحمه فحسب ، وانما تكون للقبيلة بأسرها ، فهي اخطر الظواهر الاجتماعية التي عرفت المتجمعات البشرية وهي قوام المجتمع القبلي وعماد نظامه السياسي والاجتماعي . فلم يكن يجمع العرب في الجاهلية غير العصبية ((ان البدو لا وطن لهم ، وكانوا قبل الاسلام لا دين لهم ، فلم يكن لهم ما يجمعهم غير العصبية واللغة ... لذلك عنى العرب بحفظ انسابهم وضبطها))^(٢٨) .

والعصبية القبلية ، تشبه الاتجاهات القومية الحديثة ، فكما ان القومية المتطرفة تقوم على الجنس وتتعصب له ، فكذلك العصبية القبلية تقوم على هذه العقيدة^(٢٩) ، ولكننا في نفس الوقت نراها تتنافى والشعور القومي ، لأن من شأن القومية تجزئة الامة الواحدة ، والعصبية تتنافى كذلك مع الشعور الانساني ، لأنها لا تسعى الى اقامة احلاف الهدف منها الخدمة الانسانية .

والاصل في العصبية ، ان تبني على وحدة الدم ولحمة النسب ، ويعلل ذلك ان ابن خلدون بقوله : ((لا يصدق دفاعهم وزيادهم ، الا اذا كانوا عصبية واهل نسب واحد ، لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم ؛ اذ نعمة كل احد على نسبه وعصبته اهم ؛ وما جعل الله في

قلوب عباده من الشفقة والنعرة على ذوي ارحامهم وقربائهم موجودة في الطبائع البشرية))^(٣٠) .

فالقبيلة ذات طبيعة ابوية لأنها تتكون من مجموعة اسر تربطها رابطة عصبية الدم وتندرج هذه العصبية من القوة من الخاص الى العام ، كما يقول ابن خلدون : ((اعلم ان كل حي او بطن من القبائل ، وان كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ، ففيهم ايضاً عصبية أخرى لأنساب خاصة وهي اشد التحاماً من النسب العام لهم))^(٣١) .

والقبيلة لا تمثل وحدة متجانسة ، بسبب انضواء اخرين تحت لوائها ، عن طريق الحلف والولاء الاستحقاق والاسترقاق ، وان هذا الانضواء معنوي ، يكاد يوازي في قوته رابطة النسب ولكنه يفتقد الى الناحية العاطفية .

فالعصبية درجات اقواها عصبية الاسرة ، ثم تليها عصبية القبيلة ، ثم عصبية الاحلاف ، ويلحق بها عصبية اخرى مثل عصبية الولاء وعصبية الجوار وعصبية الاجيال^(٣٢) .

والعصبية تحتم على ابناء القبيلة واجبات مشتركة ، وتلقي عليهم تبعات ، وهي بمثابة عهد مكتوبة يفرض على ابناء القبيلة التناصر والتأزر^(٣٣) ولعل ابرز مظاهر العصبية ، ما ساد المجتمع في الجزيرة من حروب ووقائع ، كحرب البسوس ، وداحس والغبراء ، ويوم الكلاب ويوم الفجار وذي قار وغيرها^(٣٤) .

٣ . الاسلام والعصبية القبلية :

ان ظهور الاسلام يعتبر نقطة تحول في حياة الامة ، فالرسالة التي جاء بها محمد (صلى الله عليه وسلم) لم تؤدي الى تفويض صرح الديانة الوثنية ، واحلال الدين الاسلامي محلها فحسب ، وانما نقلت العرب من الوحدات السياسية المحدودة المبنية على العصبية ، الى طور الوحدة السياسية المبنية على نظام الدولة ، والتي عمادها العقيدة الجديدة ودستورها القرآن الكريم ، فأفسحت المجال لتفتح براعم الشعور القومي والنظر الانسانية .

فالاسلام حارب العصبية في نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، حيث قال الله تعالى : ((يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم))^(٣٥) وقوله (صلى الله عليه وسلم) ((ليس منا من دعا الى عصبية)) و ((لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى))^(٣٦) .

وعلى الرغم من ذلك استمرت الروح العصبية في الاسلام ، على الرغم من كل المحاولات التي قام بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) املاً في ايجاد وحدة اممية مشتركة بين المسلمين فلم يكن الاسلام الا قوة على قوة العصبية ((ان الصبغة الدينية تذهب بالتنافس

والتحاسد الذي في اهل العصبية وتفرد الوجهة الى الحق ، فأذا حصل لهم الاستبصار من امرهم ، لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساوي عندهم))^(٣٧) .

٤. العادات والتقاليد والاعراف :

لم يكن للقبائل قانون مكتوب ، بل كانت لهم تقاليد بسيطة وواضحة يتمسكون بها ويصعب تغييرها ، فحكم القبيلة كان حسب العرق ، وهو مجموعة من العادات والتقاليد التي اصطلح عليها القوم منذ قديم الزمان ، ولم تكن عندهم سلطة تشريعية بل سادت عندهم هذه التقاليد ، التي تستمد تجاربهم ومعتقداتهم^(٣٨) .

ولم تكن هناك سلطة تنفيذية تقتص من الفرد ، فقد كان يترك للفرد المجنى عليه ان يقتص بنفسه ، وقد تعاونه القبيلة ، والجرم يعتبر حقاً شخصياً ، وليس هناك ما يسمى بالحق العام ، فالعادة السارية لدى القبائل ، وفقاً لمبدأ العين بالعين والسن بالسن والحياة قصاص^(٣٩) . وكثير ما يلجأ المتخاصمون الى التحكيم لدى الاعراف ، ممن عرفوا بالاتزان واصالة الرأي ، ويصدرون قراراتهم واحكامهم ، ولكن ليس لهم سلطان او قوة تلزم الفريقين على طاعة الحكم الاقوة العرف القبلي .

وقد عدل الاسلام في هذه النظم ، مقنن الدية ، وجعلها ثابتة معينة ، يستوي في مقدارها الجميع ، كما جعل تنفيذها بيد السلطة ، فلا يجوز للفرد ان يقتص بنفسه كما ابقى الاسلام المسؤولية مشتركة ، فأوجب ان تشترك القبيلة في دفع دية القتل غير العمد ، وذلك منعاً للثأر . اما الارث ، فكانت العادة قبل الاسلام ، ان الرجل وحده هو الذي يرث دون البنات وللرجل حق الوصية والهبة ، ولما جاء الاسلام فصلت احكامه : يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين))^(٤٠) .

ان المجتمع القبلي القائم على المساواة والحرية العامة ، ركز السلطة عن رضا وطيب خاطر لأنصياهم لرئيس القبيلة ، اما واجباتهم فهي عديدة وكثيرة ، انهم في الحرب على استعداد للتضحية وفي السلم يضحون في سبيل خدمة القبيلة .

والعربي ديمقراطي النزعة ، وهو يعامل شيخ القبيلة ، معاملة الكفاء ، ويفخر بنقاوة دمه وفصاحة لسانه ، ويفخر بنسبه ، وقد فاخر الحجاج بن يوسف يوماً فقال : ((لم تلدني امة ، بيني وبين آدم ما خلا هاجر))^(٤١) .

المبحث الثاني : طبقات القبيلة

تعتبر القبيلة الوحدة التي يقوم عليها النظام العربي ، وهي تتكون من العرب الصليبية ، والعييد ، والحلفاء .

أ.العرب الصليبية :

العرب الصليبية منحدرين من اصل واحد مشترك ، وهو الجد الاعلى للقبيلة ، لذا كانوا يعتبرون انفسهم متساوين نظرياً على الاقل ، فالعرب الصليبية ، هم جمهور ابناء القبيلة الصرحاء ، وعماد قوامها الذين يرتبطون فيما بينهم برابطة الدم ، وكان لهؤلاء حق الاحتفاظ بحريتهم وحق الايجارة^(٤٢) .

وإذا كان افراد القبيلة متساوون من حيث المبدأ فأن دافع الحياة كان يفرض عليهم التمايز بسبب تفاوت المؤهلات الطبيعية الطبقية والقدرات الاجتماعية والاقتصادية ((فلا يكون ابن الشريف شريفاً ، الا اذا حافظ بأعماله على صفات المروءة ومتطلباتها))^(٤٣) . وهي الشجاعة وحب الحرية والثأر وحماية الجوار والدفاع عنه^(٤٤) . وهذا بطبيعة الحال تكون طبقت الصليبية العمود الفقري للهيكل التنظيمي للقبيلة ، وتكون عادةً الحاشية المكونة لشيخ القبيلة ، حتى يستطيع ان يشق طريقه نحو الشيوخة ، بغية فرض احترامه ، وجماعة الذين يكونون الغلبة على سائر افراد القبيلة من بقية افرادها بما فيهم العبيد والحلفاء .

ب. الحلفاء :

لم تكن تربطهم بأبناء القبيلة رابطة الدم وانما لجئوا الى القبيلة على اساس الموالاتة بالجوار ومعظمهم من القلاء الذين ارتكبوا من الجرائم ما دعى قبائلهم الى التبرأ منهم وخلعهم من القبيلة^(٤٥) .

ج. العبيد :

ان اغلب العبيد من أسرى الحروب ، ولكن بعضهم نتيجة الشراء من افريقيا او الولادة او الدين والقمار ، ويعمل العبيد في الاعمال اليومية ، ولا يشتركون في الحروب ، ويعاونون اسيادهم في الاعمال التي تسند اليهم ، ولما كان الرق والمتولد من الاسرة ، فله حالة خاصة ، فإنه الرقيق يكون فيه من العرب وقد يكون له مكانة في القبيلة ؛ ولذا تكون معاملته حسنة^(٤٦) .

وبما ان الرق من قبائل أخرى ، فأن قبائلهم تفكهم بالفداء ، ودفع المبالغ بغية تحريرهم او مبادلتهم بالاسرى في حالة وجود اسرى ، اذ ليس من الشرف للقبيلة ، ان تترك افرادها المأسورين ارقاء عند القبائل الأخرى^(٤٧) .



اما كون الرقيق ملكاً لسيده ، فإنه لم يكن له حقوق مدنية او سياسية في القبيلة وكان عليه ان يعمل في خدمة سيده ، ويطيع او امره طاعة تامة ، وقد عبر عنتره بقوله :

العبد عبدكم والمال مالكم فهل عذابك عني اليوم مصروف^(٤٨)

وكان للسيد ان يعتق عبده بمنحه حرية ، اذا قدم خدمة كبيرة ، ومن امثلة على ذلك ان جبير بن مطعم ، كان قد وعد عبده وحشياً ، اذا قتل حمزة — عم النبي — في معركة احد ، فسوف يعتقه ، فلما افلح في تحقيق ذلك ، اعتقه فصار حرأ^(٤٩) ، ولما اغار بعض احياء العرب على بني عبيس ، اصابوا منهم ابلاً ، فتبعهم العبيسون ، فلحقوهم وقاتلوهم عما معهم ، وعنتره يومئذ منهم — وقد ولد من امة سوداء ، وكان من عادة العرب ان يستعبدوه — فقال له ابوه ، كر يا عنتره ، فقال عنتره : العبد لا يحسن الكر ، انما يحسن الحلاب والصر ، فقال كر وانت حر فكر وهو يقول :

انا الهجين عنتره كل امرئ يحمي صره
اسوده واحمره والشعرات المشعرة
الواردات شفرة^(٥٠) .

وقاتل يومئذ قتالاً شديداً ، فأدعاه ابوه بعد ذلك والتحق به نسبه .

وقد عرف ابناء الاماء البيض من اباء عرب (بالهجناء) ، اما ابناء الاباء السود فيطلق عليهم اسم (اغربة العرب)^(٥١) وعليه فإن كلمة العبيد لا تدل على لون البشرة ، وانما تعطي مدلولاً اجتماعياً ، فالزنجي ابن خالد ، كان ابيضاً مشرباً بالحمرة ، وانما الزنجي لقب له^(٥٢) . والرق من الناحية الاجتماعية ، موضع احتقار في جميع الازمان والعصور ((بأستثناء الفترة الاسلامية)) حتى ان فلاسفة اليونان وهم قادة الفكر ورسل الاخلاق الذين نادوا بالفضيلة قسموا الجنس البشري الى قسمين :

- ١ — احرار بالطبع .
- ٢ — رقيقاً بالطبع ، وقالوا ان الرقيق ما خلف الالخدمة الاحرار^(٥٣) .

د. الاسلام والعبيد :

لقد كانت الدولة الاسلامية تمتلك رقيقاً يسمى (رقيق الخمس) او رقيق الامارة واغلب هذا الرقيق حصتها من اسرى الحروب الذين لم يوزعوا على المقاتلين العرب وتتمتع الدولة بكافة الحقوق التي يتمتع بها الافراد على عبيدهم ، فبمقدورها ان تبيعهم او تستخدمهم . عامل الاسلام الرق معاملة فيها الرحمة والشفقة ، كما دعا الى فك رقاب العبيد . اما الموالي فهم طبقة من العرب المستضعفين التجأوا الى بعض القبائل القوية^(٥٤) .

فالاسلام وضع الاموال والنواميس ومهد الطريق لألغاء الاسترقاق . فقد كان الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) يرغب الناس في عتق الرقيق كما جعل الدين وصولاً يلزم

السيد بأعتاق العبد من اجل العبادة واقربها قبولاً الى الله كما جعلها كفارة لبعض الخطايا وقد وصف ((ادنبرغ)) معاملة الاسلام للرقيق بقوله : ((لقد وضع للرقيق في الاسلام قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوي عليه محمد (صلى الله عليه وسلم) واتباعه نحوهم من الشعور الانساني النبيل))^(٥٥) .

كما ان الدولة العربية الاسلامية كانت حريصة على تحرير عبيدها . فالمسلمون اطلقوا معظم من وقع بأيديهم من الاسر ، فلم يسترقوا الاحاميات المدن ، ولما كان هؤلاء جنوداً ولهم تدريب عسكري فلا بد وان الدولة استخدمت بعضهم في اعداد الحملات او في الجيش كأدلاء كما استخدموا للقتال الى جانبهم^(٥٦) .

ان للدولة العربية الاسلامية كان لها تأثير كبير على تحرير العبيد فبعد الفتح الاسلامي قتل وفر الاسياد الساسانيون وكذلك الروم تاركين عبيدهم او ان المتبقين منهم لم يستطيعوا اعادة العبيد بسبب فقدان اسناد الدولة لهم .

كما ان الاسلام قوى من معنوية العبيد الذين يعتقونه لما وعد فيه من مساواة كما ان الاسلام شجع على اعتاق العبيد كأن جعله واجباً دينياً في عدة حالات ككفارة اليمين الكاذبة او تكفير عن جريمة القتل وغيرها^(٥٧) .

د . الاحلاف والملاء :

لقد حملت الاخطار نتيجة الحروب وتهديدات الغزو المستمر بعض القبائل وخاصة الصغيرة الى التحالف مع القبائل الكبيرة القوية ، بغية اتقاء شرها او لمعونتها ضد الخطر الخارجي من اجل المحافظة على وجودها فقد ذكر النويري ان العرب ((ينتسبون الى الاعز لحماية الحمية وابادة الدنية ، وسكون النفوس الى نفيس الكثرة والعصية))^(٥٨) .

وكان يترتب على عقد التحالف بين قبيلتين ، نشوء التزامات مبادلة ، تضمن حسن العلاقة لذلك يستطيع ابناء القبيلة المتحالفة المرور بمواطن هذه القبائل غير خائفين ، وقد تمر قوافلهم بأمان ، ولا تجبى الا على ما اتفق عليه وجرت عليه عادات المتحالفين وعلى ابناء هذه القبائل حماية من يجتاز أرضهم ، وتقديم المساعدة له ، وتظيفه ودفع الاذى عنه وعليه ان يتعصب للحلف تعصبه لقبيلته^(٥٩) .

ونلاحظ ان التحالف بين قبيلتين ، اذا طال امده ، فإنه قد يؤدي الى اندماج القبيلة الضعيفة بالقوية وتحولها الى قبيلة واحدة ، ذات نسب واحد ورئيس واحد ، وقد اشار ابن خلدون الى هذه الظاهرة : ((اعلم انه من البين ان بعضاً من اهل الأنساب يسقط الى اهل نسب آخر بقرابة اليهم او حلف او ولاء او لفرار من قومه بجناية اصابها ، فيدعي بنسب هؤلاء ويعد منهم في ثمراته من النفر والعود وحمل الديات وسائر الاحوال . واذا وجدت ثمرات النسب

فكانه وجد ؛ لأنه لا معنى لكونه من هؤلاء ومن هؤلاء الا جريان احكامهم واحوالهم عليه وكأنه التحم بهم ، ثم انه قد يتناسى النسب الاول بطول الزمان ، ويذهب اهل العلم به فيخفى على الاكثر))^(٦٠) .

ان استقطاب القبائل الطبيعية حول القوية على طريق التحالف ، كان وسيلة مناسبة لانشاء الممالك في شبه الجزيرة وبرز مثال على ذلك ، ما فعلته كندة ، حينما اقاموا تحالفاً واسعاً مع مجموعة من القبائل وانشأوا مملكة كندة^(٦١) .

ان التحالفات بين القبائل العربية في مرحلة ما قبل الاسلام قد كثرة وتنوعت بحيث لم تعد مقصورة على التحالفات ذات الطبيعة السياسية ، فعرفة انواع من التحالفات ذات الصبغة الاقتصادية مثل (ايلاف قريش) كما ظهرت احلاف ذات طبيعة دينية مثل (الحلة والحمس والطلس) ان هذا التعدد والتنوع يدل على الشعور بالحاجة الى تجاوز الروابط القبلية الطبيعية ، والتطلع الى روابط اكثر سعة لتصل الى البعد القومي ، الذي ينظر الى العرب بصفتهم امة واحدة^(٦٢) .

وقد يكون الحلف مؤقتاً او دائماً وغالباً ما يسبقه مفاوضات ، وكانوا اذا عقدوا ، اوقدوا ناراً ، ويذكرون خيرها ، ويدعون بالحرمان ، من خيرها على من نقض العهد^(٦٣) ويصحبها احياناً بعض المراسم ، كالقسم ، ولعق الدم لتوكيدها^(٦٤) .

وإذا اخذنا قدسية الدم الموروث بالنسبة للقبائل العربية وتأكيد اهمية الصلابة في بناء القبيلة ، يبدو بأن الاحلاف ، لم يكن لها ذلك التأثير الكبير في تكوين القبائل العربية ، ولذا تعددت الاحلاف منها :

١. حلف الافراد :

ان ينتظم الرجل الى غير قبيلته بالحلف والموالة ، فينسب اليها او الى قبيلته او ينسب الى القبيلتين^(٦٥) او ينسب الى اخرين نتيجة فراره من قومه لجناية اصابها^(٦٦) او اصطناع قوم من غير نسبهم)) فأذا اصطنع اهل العصبية قوماً من غير نسبهم ، او استرقوا العبدان والموالي والتحموا بهم ، ضرب معهم اولئك الموالي والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدتها ، كأنها عصبيتهم ، وحصل لهم في الانتظام في العصبية ، مساهمة في نسبها كما قال: الرسول (صلى الله عليه وسلم) : مولى القوم منهم))^(٦٧) .

فالغرض من احلاف الافراد هو ان ينال حماية القبيلة التي يحالفها ويستطيع العيش تحت اكنافها لأن اكثرهم ارتكبوا جرائم قتل في قبائلهم الاصلية ، فتحلهم القبيلة وتطردهم^(٦٨) حتى ولو كانوا من الصلابة وتعلن القبيلة عن خلعهم حتى يكون معلوماً للقبائل الاخرى^(٦٩) .

ويكفي للفرد ان يدخل خيمة رجل ويمسك حبل الخيمة ، او يذكر بأنه دخيلاً ، لكي يظفر بالحماية لأن رد الدخالة ليس من المروءة ، والحليف قد يكون مؤقتاً او دائماً ، وتدافع القبيلة

عن حلفائها بأعتبارهم افراد منهم ، وترثهم ان لم يكن لهم وارثاً وتعينهم في دفع دية القتل غير العمد ، كما تطالب بديتهم^(٧٠) .

ومكانة الحليف في القبيلة دون مكانة أبن القبيلة الصريح ، فكانت دية الحليف اذا قتل نصف دية ابن القبيلة الصريح^(٧١) ، ومن ثم فإنه لا يطمح ان تكون له الزعامة ، لأنه لا يوازي في المكانة والشرف ابنائها الصرحاء ، اما ما عدا ذلك فإنه يتمتع بكافة الحقوق^(٧٢) .

٣ . حلف القبائل :

شاع نظام الاحلاف وانتشر قبل الاسلام ، لما املتها ظروف الجزيرة العربية ، والاحلاف في هذه الحالة اقرب الى المعاهدات^(٧٣) ومن امثالها : حلف الفضول ، حلف المطيبين ، حلف لعقة الدم ، حلف الرباب ، حلف الحمس ، حلف قريش مع الاحابيش ، وغيرها من الاحلاف واليك نموذجاً منها :

أ . حلف الفضول :

نشأ حلف الفضول بسبب رجل من زبيد من اليمن ، قدم مكة ببضاعة فأشترها منه العاص بن وائل السهمي ، فمطله بالثمن حتى يئس ، فعلا جبل ابي قبيس ، وقريش في مجلسها حول الكعبة فنأدى بشكل يصف ظلامته :

يا للرجال المظلوم بضاعته ببطن مكة نادى الحي والنفر
ان الحرام لمن تحت حرامته ولا حرام الثوب لفاجر الغدر^(٧٤)

فأجتمعت القبائل الموجودة في مكة فتحالفوا على التناصر والايخذ للمظلوم من الظالم وتداعت القبائل الى دار عبد الله بن جدعان لشرفه ونسبه ، فتحالفوا وتعاقدوا على ان لا يجعلوا بمكة مظلوماً من اهلها ، وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس ، الا اقاموا معه وكانوا على ظلمه حتى ترد عليه مظلمته^(٧٥) وقال فيه الزبير بن عبد المطلب :

حلفت لنعقدن حلفاً عليهم وان كنا جميعاً اهل دار
نسميه الفضول اذا عقدنا يعز به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالي البيت انا اباة الضيم نهجر كل عار^(٧٦)

وقد شهد حلف الفضول الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) بقوله (لقد شهدت حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ، لو دعيت الى مثله لا جبت ، وما زال الاسلام الا تشديداً))^(٧٧).

ب . حلف المطيبين :

لما كبر قصي فوض امر الوظائف التي كانت اليه ، من رئاسة قريش وشرفها من الرفادة والسقاية والحجابه واللواء والندوة الى ابنه عبد الدار ، اكبر اولاده ، فكان اخوته (ينازعونه في ذلك ، فلما انقرضوا تشاجر ابنائهم في ذلك ، وانقسمت بطون قريش فرقتين ، فرقة بايعت

عبد الدار ، وحالفهم ، وفرقة بايعت بني عبد مناف وحالفوهم على ذلك ، ووضعوا ايديهم عند الحلف في جفنة فيها طيب ، ثم لما قاموا مسحوا ايديهم بأركان الكعبة ، فسموا حلف المطيبين ، ثم اصطلحوا واتفقوا على ان الرفادة والسقاية لبني عبد مناف ، وان تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار ((^(٧٨)) فسموا اولئك الاحلاف وهؤلاء المطيبين وقال عمر بن ابي ربيعة المخزومي بذكر المطيبين والاحلاف :

ولها من المطيبين جدود
ثم نالت ذوانب الاحلاف
انها بين عامر بن لؤي
حين تدعي وبين عبد مناف^(٧٩)

المبحث الثالث :

الإدارة في المجتمع القبلي :

لإدارة القبيلة ، لابد من وجود شخصية عليا ، يطلق عليها اسماء مختلفة ، كالامير ، والرب ، والرئيس ، والشيخ ، فالرب كانت تستعمل قبل الاسلام للملك او الحاكم ، فيقال رب الشام ، ورب الحجاز ، ورب الخورنق والسدير ، فمنذ سيادة الاسلام بدأ هذا التعبير يتحدد في الله سبحانه وتعالى اما تعبير الامير ، فكان يستعمل عادة للجيش ، فيقال امير السرايا ، واستعمل لقب امير المؤمنين في الاسلام باعتبار ان الامة الاسلامية امة محاربة .

١- شيخ القبيلة :

كان لقب الرئيس مرادفاً للقائد ، فهو بمثابة الرأس للقبيلة فقد يتمتع بصفات عديدة منها : كبير السن سواء ساد ام لم يسد^(٨٠) ولما كانت تقاليد القبيلة ، تختتم في الغالب ان يتولاها من هو اكبرها سناً ، اذ توفرت فيه الصفاة المألوفة للرئاسة ، فأن الغالب هو لقب شيخ القبيلة . وعادة شيخ القبيلة التي تظهر زعامته بما لديه من اصالة الرأي والسن والشجاعة ، وليس الشيخ امره مطلقاً ، بل عليه ان يشاور مجلس القبيلة الذي يسمى (الملاء) وبذلك يقول الطبري في قصي بن كلاب ((وتيمنت بأمره فما تتكح امرأة ولا رجل من قريش الا في دار قصي بن كلاب ، وما يتشاورون في امر نزل بهم الا في داره ، ولا يعقدون لواء الحرب قوم من غيرهم الا في داره يعقدها لهم بعض ولده ، وما تدرع جارية اذا بلغت ان تدرع من قريش الا في داره ... فكان امره في قومه من قريش في حياته وبعد موته كالدين المتبع))^(٨١) .

وافراد القبيلة ، يعاملون الشيخ معاملة متكافئة بعيدة عن الخضوع المشوب بالأدلال^(٨٢) ويمكن القول بأن مكانة شيخ القبيلة ، كمكانة الملوك ، ولا فرق بينهما ، الا ان شيخ القبيلة ،

لا يمكن ان يورث الرئاسة الى ابنائه ، الا اذا اظهروا كفاية لذلك المنصب^(٨٣) ويمثل الوازع عند القبائل البدوية في السلطة مشايخهم وكبرائهم التي تسند الى العرف والتقاليد ((واما احياء البدو فيزرع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم ، بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة ، واما حلهم فأنما يذود عنها حامية الحمى من انجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم))^(٨٤) .

ان سلطة شيخ القبيلة هنا لا تسند على القهر والتغلب الذي هو احد سمة الملك وانما يستند الى العصبية ، والى ما وقر في نفوس الكافة من الوقار والتجلة ، الذي هو سمة من سمات الرئاسة القبلية ، فالرئاسة ((انما هي سوؤد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في احكامه))^(٨٥) .

أ. صفات شيخ القبيلة :

يشترط في شيخ القبيلة ان يكون اشرف رجال القبيلة ، واشد عصبية واكثر مالاً ، واكبر سناً واعظم نفوذاً^(٨٦) وقد جاء في وصية قيس بن عاصم لبيته :

((يا بني اذا مت فسودوا كباركم ولا تسودوا اصغاركم ، فيسفه الناس كباركم))^(٨٧) وقد يتصف بصفات خلقية ، تعد حيوية بالنسبة للمجتمع وقد عدها الجاحظ : ((كان اهل الجاهلية لا يسودون الا من تكاملت فيه ستة خصال السخاء والنجدة والصبر والحكم والتواضع والبيان))^(٨٨) .

والحقيقة يمكن ارجاع هذه الخصال الست الى ثلاثة خصال هي : العقل ، والكرم ، والشجاعة ، وذلك لأن الصبر والحلم والتواضع والبيان كلها مظاهر على قوة العقل وحسن التفكير ، اما النجدة ، فهي احدى علامات الشجاعة ، واما السخاء فيعني الكرم ، وقد عبر عن معظم هذه الصفات قيس بن عاصم حينما سأل : ((بما سدت قومك ، قال ببذل الندى ، وكف الاذى ، ونصرة المولى ، وتعجيل القرى)) كما ترددت هذه المعاني نفسها في قول عرابة بن اوس حينما سأل : بأي شيء سدت قومك يا عرابة قال : ((اني والله لا اعفوا عن سفيهم ، واحلم عن جاهلهم ، واسعى في حوائجهم ، واعطي سائلهم))^(٨٩) .

ب. واجباته وحقوقه :

ان اختيار شيخ القبيلة لم يكن عملية اعتباطية ، وانما وفق مواصفات اقرتها القبيلة ، وعليه واجبات غير قليلة ، فعليه رعاية امور القبيلة ، وتحقيق التكامل بين افرادها ، ويعين الضعفاء ، ويواسي المنكوبين ، ويفتح في بيته مضيئاً للضيوف والوافدين ومندوبي القبائل الاخرى ، وتنظيم امور الدفاع عن القبيلة وقيادتها في اوقات السلم والحرب ، لذا كانوا

يفخرون بالدفاع عن قومهم وقيادتهم لهم في اوقات الحروب^(٩٠) من امثال عامر بن الطفيل العامري الذي يقول :

واني وان كنت بن سيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب
فما سودتني عامر عن وراثة ابي الله ان اسموا بجد ولا أب
ولكنني احمي حماها واتقي اذاها وارمي من رماها بمنكبي^(٩١)

وكان عليه ان يدير المناقشات في المجلس ويتولى المفاوضات مع القبائل الاخرى ولا يمنع احداً من الكلام في المجلس ، ولا يفرض رأيه الا بقدر ما له من حجة في الاقناع ، وعليه ان يعض المنازعات اذا لجأ اليه المتخاصمون ، فكانوا يحكمون اهل الشرف والصدق والامانة والرياسة والسن والمحبة والتجربة^(٩٢) .

اما حقوق رئيس القبيلة ، فتتلخص في ثلاثة امور :

١- حقه في اطاعة اوامره ، اذ لا معنى للسؤدد والرئاسة ، اذا لم يكن صاحبها مطاعاً في قومه ، فقد وصلت الينا عدة من الاخبار عن مدى احترام افراد القبيلة لسيدهم وطاعتهم لأوامره فقد ذكر ابن اسحاق ان امر قصي في قريش ((كالدين المتبع لا يعمل بغيره))^(٩٣) .

٢- مساعدة رئيس القبيلة ، في تحمل الابعاء المالية ، التي تقع على عاتقه من جراء قيامه بواجباته لذا جرى العرق على منح الشيخ ربع ما تحصل عليه القبيلة من غنائم الحرب ، فضلاً عن الصفي الذي يصطفيه لنفسه من الغنيمة ، وقد عبر الشاعر عبد الله بن عتبة بقوله :
لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول^(٩٤)

اما بالنسبة للقبائل المستقرة ، التي لا تمارس الغزو ولا تحصل على الغنائم ، فكانت القبيلة تعاون الشيخ بطرق أخرى ، منها ما فعلته قريش في تغطية نفقات الرفادة ، فكانت تخرج ((في كل موسم من اموالها الى قصي بن كلاب ، فيصنع به طعاماً للحجاج ، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد))^(٩٥) .

٣ - حقه في معاونة جميع افراد القبيلة له في الاطلاع بواجباته في الدفاع عنها في اوقات الحرب ، وفي حماية الامن الداخلي لها ، وبذلك وجب على كل فرد ان يضع نفسه وامكانياته في خدمة القبيلة .

٢- مجلس القبيلة :

لكل قبيلة عادة مجلس هو (دار الندوة) ، يقرر زعماء القبيلة فيه ما يمكن ان يقدم لها ((وكانت لقصي بن كلاب جميع الرياسة من حجابة البيت وسدائنه واللواء ، وبنى داراً لازاحة الظلمات وفصل الخصومات سماه دار الندوة ، اذا اعطلت قضية اجتمع الرؤساء من

كل قبيلة ، فأستوشروا فيها وفصلوها))^(٩٦) ، وذكر ابن الاثير بهذا الصدد : ((فأتخذ قصي بن كلاب (دار الندوة) وبابها في المسجد ، وفيها كانت قريش تقضي امورها))^(٩٧) . فلما كبر قصي اعطى دار الندوة لابنه الاكبر عبد الدار ، ثم آل امرها فيما بعد كما يقول ابن الاثير : ((واما دار الندوة فلم تزل لعبد الدار ثم لولده حتى باعها عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف من معاوية ، فجعلها دار الامارة بمكة ، وهي الان في الحرم معروفة ومشهورة))^(٩٨) .

ويتحدث المجتمعون في دار الندوة في اوقات السلم ، في مختلف شؤون القبيلة ، ويناقشون الامور الداخلية والخارجية بالنسبة للقبائل الاخرى ، ولكل فرد ابداء رأيه والدفاع عنه ومن الفخر والاعتزاز ان يكون الفرد من المتحدثين في المجلس^(٩٩) .

وكان رئيس القبيلة يدير الحديث والنقاش ، بصورة تعبر عن روح الاحترام والمساواة لجميع الحاضرين ، وبما يكفل تفاعل الراء وتلاقحها ، وصولاً الى الرأي الاصوب ، وكان هذا الاسلوب في عرض الامور ومناقشتها يدعى (بالشورى)^(١٠٠) .

وكانت الشورى هي الاسلوب الاقل عند العرب في ادارة امورهم ، فقد قيل لرجل من عبس : ما اكثر صوابكم ، قال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد ، فنحن نشاوره ، فكأننا ألف حازم ، فقال الشاعر في الشورى :

الرأي كالليل مسود جوائبه والليل لا ينجلي الا بأصباح

فأضم مصابيح اراء الرجال الى مصابيح رأيك تزدد ضوء مصباح^(١٠١)

وقد وردت اشارة الى هذه المجالس في شعر الشعراء في معرض حديثهم لاصحابها ويطلق عليها اسم اندية فقال زهير بن ابي سلمى في مدح هرم بن سنان :

وفيهم مقامات حسان وجوههم اندية ينتابها القول والفعل^(١٠٢) .

كما وردت اشارة الى المجالس والاندية في معرض فخر الشعراء بأنفسهم في العديد من الابيات الشعرية ومن نماذج ذلك :

ولكن ستبكي خطوب ومجلس وشعث اهينوا في المجالس جوع

حمال ألوية شهد اندية قوال محكمة جواب افاق^(١٠٣)

ويبدو ان مجلس القبيلة ، السلطة العليا في ادارة شؤون القبيلة ، وكانت قراراته واجبة التنفيذ ، لانها بمثابة تعبير عن ارادة جميع الرجال البالغين في القبيلة او ممثليهم ولذا يعد قرار مجلس القبيلة قرار مجلس شورى الذي جاء به الاسلام واقره واعتمد عليه من اساس حكمه ((وامرهم شورى بينهم))^(١٠٤) .

المبحث الرابع الاسلام والتنظيم القبلي

اثرت النظم العربية في نظم الحياة عند ظهور الاسلام بل كان تأثيرها في الاسلام نفسه ، والواقع ان الاسلام وقف موقفاً معادياً في المعتقدات والنظم العربية القديمة التي لا تتسجم مع مبادئ الدين الجديد فوصفهم بأنهم اشد كفراً ونفاقاً حيث قال الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) : ((لعن الله اليهود اتخذوا قبور انبيائهم مساجد لا يبقين دينان في جزيرة العرب))^(١٠٥) .

حارب الاسلام روح العصبية القبلية والنزعات الجاهلية كقوله تعالى : ((اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية))^(١٠٦) وقد جاء في خطبة الوداع ((يا معشر قريش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية))^(١٠٧) .

ان الاسلام حينما جاء وجد في العرب عرف وتقاليد وانظمة ومناسك فدعى الى ترك الضار منها كالشرك وعبادة الاصنام والوآد والقتل والربا وانتهاك الحرمات ، ومنها النافع فأقرها كالوفاء والعهد والنجدة والنخوة واکرام الطيف وصلة الرحم والجود والایمان^(١٠٨) كما اقر الاسلام عادات اخرى وتقاليد فكانوا لا ينكحون الامهات والبنات وكان اقبح شيء عندهم الجمع بين الاختين وكانوا يحجون البيت ويعتمرون^(١٠٩) .

وهكذا ادخلت كثيراً من النظم البدوية كجزء في الاسلام واصبحت قانوناً يسير عليه المسلمون .

جمع الاسلام العرب تحت لوائه والى بين قلوبهم وقضى على العصبية القبلية واحل محلها الولاء للامة الاسلامية وللعقيدة الجديدة كقوله تعالى ((يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم))^(١١٠) .

واصبح حماس العربي للعقيدة الجديدة لا يقل عن حماسه للعادات القبلية واصبح الشخص مرتبباً بالله سبحانه وتعالى لا مرتبباً برابطة الدم القبلية^(١١١) .

وقد حافظ العرب على نظامهم القبلي في صدر الاسلام بالرغم من المحاولات لألغائها وعندما استوطنوا في الامصار على اساس القبائل ، ولكن لا يخلوا من بعض التعديلات كدمج القبائل الصغيرة بالقبائل الكبيرة^(١١٢) .

ونلاحظ حتى حركة الفتوحات العربية الاسلامية في بلاد ايران وخراسان وما وراء النهر قامت بها المقاتلة من اهل البصرة والفتوحات في القسم الغربي في اذربيجان وارمينيا قامت بها المقاتلة من اهل الكوفة .

والامة العربية التي ينتسب اليها الرسول الكريم والمهاجرين والانصار وبقية العرب في الجزيرة وخارجها هي امة العرب ومادة الاسلام وفيها يقول الله سبحانه وتعالى : ((كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله))(١١٣) .

موقف الرسول والخلفاء الراشدين من التنظيم القبلي :

ان القبائل العربية وزعمائها وجدوا في الدين الاسلامي الجديد خطراً يهدد مصالحهم ونفوذهم لذلك كان موقفهم موقف العداء ، وادرك الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذلك فكان يعمل على تأليف قلوبهم كما انه كان يؤثر من كان معه في العطاء والغنائم وقد بعث علياً الى النبي بذهبية فقسمها بين اربعة من اشراف القبائل(١١٤) .

ولقد حارب الرسول (صلى الله عليه وسلم) التنظيم القبلي الضيق والتوجه نحو المظاهر التالية :

- ١- المواخاة بين الناس على اساس العقيدة لا على اساس القبيلة .
 - ٢- اهدار الدماء التي كانت في الجاهلية .
 - ٣- الايات القرآنية والاحاديث النبوية التي تنفي العصبية والقبيلة وانكار الدعوة لها .
 - ٤- تصفية احقاد الجاهلية والتألف بينهم تقوم على العقيدة مقام الدم والمساواة مقام التفاخر والتقوى مكان النسب ووحدة الكلمة والاتفاق مكان التشتت والافتراق(١١٥) .
- وعلى الرغم من هذا استمرت الروح العصبية في الاسلام على الرغم من كل المحاولات التي قام بها الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) للقضاء على التعصب ، اذ استطاع الخلفاء الراشدون الى حد ما من الحد من العصبية . ولقد اقر الاسلام بعض الامور التي تمت الى العصبية مثل لولي القتل حق طلب دم صاحبه بقوله تعالى : ((ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً))(١١٦) .

كما ان الاسلام اخذ في النظام القبلي في اغراضه العسكرية فقسم الجيش الى وحدات على اساس القبائل . فلم تشير النصوص التاريخية الى ان الجيش الاسلامي قسم الى خيالة ومشاة وانما تشير الى تنظيمه على اساس القبائل العربية وكذلك اسكنوا القبائل في الاراضي المحررة والمفتوحة على اساس القبلي كما ان الامصار نفسها بنيت على اساس القبلي(١١٧) .

الخاتمة :

١- ان الجفاف الذي اصاب الجزيرة العربية ، فرض على سكانها عبئ التكيف مع المناخ الصحراوي ، والبحث عن اسباب الحياة بكل الوسائل المتاحة ، وترتب على الظروف الجغرافية والمناخية ، ظهور تمطين من المعيشة ، نمط الحياة الحضرية المستقرة القائمة على الزراعة والصناعة ، ونمط الحياة البدوية القائمة على عدم الاستقرار ، وغلبت حياة البداوة على حياة الاستقرار ، وحالت دون قيام المجتمعات الكبرى ، وجعلت من الصعب قيام حكومة تقوم على احترام جميع حقوق ابنائها ، دون النظر الى القبائل او الرئاسة ، التي اقر بها الاسلام بصورة غير مباشرة ، بما تجلى ذلك في التنظيم العسكري وتوزيع العطاء واستيطان القبائل في الامصار .

٢- وكانت المصلحة العليا للقبائل تتطلب منها التعاون والتكليف من اجل اشباع حاجاتهما الحياتية المشتركة ، الا ان شحة الماء ومحاولة بعض القبائل القوية بسط سيطرتها على القبائل الاخرى ، كانت تفجر الخلافات والنزاعات بين القبائل ، وما نتج عن ذلك عجز القبائل العربية عن التوحيد في اطار دولة واحدة او كيان سياسي موحد ، حتى ظهور الاسلام .

٣- واذا كانت القبائل العربية قد عجزت من تحقيق وحدتها السياسية ، فأنهم قد افلحوا في تحقيق نوع من الوحدة الثقافية ، وذلك عن طريق التواصل الدائم ، عبر قنوات مختلفة ، وكان ابرزها الاشتغال بالتجارة كما ان البحث عن الماء والكأ ، كان من العوامل المساعدة على الاختلاف والتفاعل بين ابناء القبائل العربية ، كما كان للحج الى مكة ، عاملاً ذا شأن في تقوية التفاعل الفكري والاجتماعي بين العرب .

٤- ان كثير من الكتاب بالغوا في الحديث عن انقسام العرب ، وركزوا على جوانب الصراع بين القبائل من خلال حديثهم عن ايام العرب ، وعضوا الطرف عن الصور المشرفة للتعاون والتحالف بين القبائل ، فضلاً عن عوامل الوحدة الثقافية التي ميزتهم عن الاقوام غير العربية ، ناهيك عن العادات والقيم والاعراف التي كانت تكون دستور نظام الحكم القائم في القبيلة ، والمستند الى القيم الحميدة ونظام الشورى الذي جاء به الدين الاسلامي .

٥- ان وحدة العرب الثقافية ، ونجاحهم في اقامة تحالفات سياسية واجتماعية ودينية متنوعة قبل الاسلام ، قد مهدت الطريق لظهور الرسالة الاسلامية ، وساعدت الرسول (صلى الله عليه وسلم) في سعيه من اجل تحقيق وحدة الامة العربية ، على الرغم من ان القبائل العربية وزعمائها ، وجدوا من الدين الاسلامي خطراً على مصالحهم ونفوذهم ، ولكننا في الوقت نفسه

نرى بأن القبيلة التي تعتمد اساساً على العصبية القبلية ، تتنافى والشعور القومي ، لان من شأنها تجزئة الامة الواحدة ، الى جماعات متفرقة ، فهي جوهر الخلاف الذي يفرق الامة.

الهوامش ومصادر ومراجع البحث

- ١- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، ط ٢ ، (بيروت : ٢٠٠٢) ، ١ / ١٣٤ .
- ٢- المقدادي ، درويش ، تاريخ العرب والاسلام ، (بغداد : ١٩٣٢) ، ٣٥ .
- ٣- الرفاعي ، انور ، الاسلام في حضارته ونظمه ، (دمشق : ١٩٧٣) ، ٢٠٢ .
- ٤- سالم ، السيد عبد العزيز ، تاريخ الدولة العربية ، (الاسكندرية : ١٩٧٣) ، ١٨ .
- ٥- الشريف ، احمد ابراهيم ، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، ط ٢ ، (بلا. ت) ، ٢٤ .
- ٦- الرفاعي ، الاسلام ، ٢٢ ؛ الصلابي ، علي محمد ، السيرة النبوية ، ط ٤ ، (دمشق - بيروت : ٢٠٠٦) ، ١ / ٣٢ .
- ٧- حسن ، حسن ابراهيم ، التاريخ الاسلامي العام ، ط ٢ (القاهرة : ١٩٥٩) ، ٤٧٨ .
- ٨- ابن عبد ربه ، احمد بن محمد ، العقد الفريد ، (بيروت : ١٩٩٠) ، ٥ / ٢٠٢ .
- ٩- الصلابي ، السيرة النبوية ، ١ / ٣٢ .
- ١٠- ابن خلدون ، العبر ، ١ / ١٤٢ ؛ النص احسان ، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الاموي ، (بلا. ت) ، ١٧٨ .
- ١١- العلي ، صالح احمد ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، ط ٢ (بغداد : ١٩٦٩) ، ٤٧ .
- ١٢- ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٣ / ٣١٢ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ١ / ١٣٨ .
- ١٣- سورة الانعام ، اية : ١٢٤ .
- ١٤- ابن كثير ، اسماعيل الدمشقي ، البداية والنهاية ، اخرج احاديثه : احمد بن شعبان بن احمد ومحمد بن عيادي بن عبد الحلیم (القاهرة : ٢٠٠٣) ، ٢ / ٢١٢ .
- ١٥- المقدادي ، تاريخ العرب ، ٤٥ .
- ١٦- الفلقشندي ، احمد بن علي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ، (القاهرة : بلا) ١ / ٣٠٨ .
- ١٧- ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٣ ، ٣٣٥ .
- ١٨- زيدان ، جرجي ، تاريخ التمدن الاسلامي ، (بلا. ت) ٤ / ٢٩٠ .
- ١٩- ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم ، المعارف ، (القاهرة : ١٩٣٤) ، ٤٦ ؛ الفلقشندي ، صبح الاعشى ، ٥ / ١٩ .
- ٢٠- ابن هشام ، محمد بن عبد الملك ، السيرة النبوية ، (القاهرة : ١٩٥٥) ، ٣ / ١ .
- ٢١- النويري ، احمد بن عبد الوهاب ، نهاية الارب في فنون الادب ، (القاهرة : بلا) ، ٦ / ١٦ .
- ٢٢- حسن ، حسن ابراهيم ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، (القاهرة : ١٩٣٥) ، ١ / ٢٨ .
- ٢٣- ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٣ / ٣١٩ ؛ النويري ، نهاية الارب ، ١٦ / ١٥ .

- ٢٤- ابن الطيب ، محمد بن احمد الحسني ، العقد الامين في تاريخ البلد الامين ، (القاهرة : ١٩٥٨) ، ١ / ١ ، ٤٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢ / ١٧١ .
- ٢٥- ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٣ / ٣١٣ .
- ٢٦- النص ، العصبية القبليّة ، ١٠٥ .
- ٢٧- ابن خلدون ، العبر ، ١ / ١٦٨ .
- ٢٨- زيدان ، التمدن الاسلامي ، ٤ / ٢٩٠ .
- ٢٩- حتي ، فليب واخرون ، تاريخ العرب مطول ، ط٤ (بلا : ١٩٦٥) ، ١ / ٣٥ .
- ٣٠- العبر ، ١ / ١٣٦ - ١٣٧ .
- ٣١- المصدر نفسه ، ١ / ١٤٠ .
- ٣٢- طلس ، محمد اسعد ، تاريخ العرب ، ط٢ (بلا : ١٩٧٩) ، ٨٦ .
- ٣٣- النص ، العصبية القبليّة ، ١٠٧ .
- ٣٤- ابن قتيبة ، المعارف ، ١٢٤ ؛ المسعودي ، علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق ، مصطفى السيد ابن ابي ليلى ، (القاهرة : ٢٠٠٠) ، ٢ / ٤٦ .
- ٣٥- سورة الحجرات ، آية : ١٣ .
- ٣٦- ابو زهرة ، محمد احمد ، المذاهب الاسلامية ، (بلا : ت) ، ١٥ .
- ٣٧- ابن خلدون ، العبر ، ١ / ١٦٧ .
- ٣٨- حسن ، علي ابراهيم ، تاريخ الاسلام العام ، ط٢ (القاهرة : ١٩٥٩) ، ٤٨٢ .
- ٣٩- العلي ، صالح احمد ، محاضرات في تاريخ العرب ، ط٣ (بغداد : ١٩٦٤) ، ١٦٢ .
- ٤٠- سورة النساء ، آية : ١١ .
- ٤١- حتي ، تاريخ العرب ، ٣٦ .
- ٤٢- الجميلي ، رشيد ، محاضرات في تاريخ العرب ، (بغداد : ١٩٧٢) ، ١٩٨ .
- ٤٣- الملاح ، هاشم يحيى ، الوسيط في تاريخ العرب قبل الاسلام ، (الموصل : ١٩٩٤) ، ٣٧٥ - ٣٧٦ .
- ٤٤- العلي ، محاضرات ، ١٣٤ .
- ٤٥- المرجع نفسه .
- ٤٦- الاصفهاني ، علي بن الحسين ، كتاب الاغاني ، (القاهرة : بلا) ، ٣ / ٣٩ - ٤٠ . الملاح ، الوسيط ، ٣٧٨ .
- ٤٧- المرجع نفسه ، ١٣٦ .
- ٤٨- الاصفهاني ، الاغاني ، ٨ / ١٦٨ .
- ٤٩- ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٢ / ٧١ - ٧٢ .
- ٥٠- الاصفهاني ، الاغاني ، ٨ / ١٦٩ .
- ٥١- الجميلي ، محاضرات ، ٢٠٠ .
- ٥٢- ابن قتيبة ، المعارف ، ٢٥٧ .
- ٥٣- حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، ١ / ٢٢٧ .
- ٥٤- طلس ، تاريخ العرب ، ٩٣ .

- ٥٥ - حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، ٢٣٤ .
- ٥٦ - العلي ، محاضرات ، ٧٠ .
- ٥٧ - العلي ، التنظيمات ، ٧٤ .
- ٥٨ - الملاح ، الوسيط ، ٣٩٠ .
- ٥٩ - الملاح ، الوسيط ، ٣٩١ .
- ٦٠ - العبر ، ١ / ١٣٩ .
- ٦١ - علي ، جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، (بغداد : ١٩٧٦) ، ٤ / ٣٣١ . العلي ، محاضرات ، ٨٣ .
- ٦٢ - الملاح ، الوسيط ، ٣٩٢ .
- ٦٣ - القلقشندي ، صبح الاعشى ، ١ / ٤٠٩ .
- ٦٤ - العلي ، محاضرات ، ١٦١ .
- ٦٥ - القلقشندي ، صبح الاعشى ، ١ / ٣١٠ .
- ٦٦ - ابن خلدون ، العبر ، ١ / ١٤٤ .
- ٦٧ - المصدر نفسه ، ١ / ١٤٤ .
- ٦٨ - العلي ، محاضرات ، ١٣٥ .
- ٦٩ - علي ، المفصل ، ١ / ٣٦٦ .
- ٧٠ - العلي ، محاضرات ، ١٣٥ .
- ٧١ - زيدان ، التمدن الاسلامي ، ٤ / ٢٩٧ .
- ٧٢ - الملاح ، الوسيط ، ٣٧٨ .
- ٧٣ - الجميلي ، محاضرات ، ١٩٩ .
- ٧٤ - المسعودي ، مروج الذهب ، ٢ / ٢٤٨ .
- ٧٥ - ابن هشام ، السيرة النبوية ، ١ / ١٣٣ - ١٣٤ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ٢ / ٢٤٨ ؛ ابن الاثير ، علي بن ابي الكرم ، الكامل في التاريخ ، ط٤ (بيروت : ٢٠٠٤) ، ١ / ٦٤١ - ٦٤٢ .
- ٧٦ - المسعودي ، مروج الذهب ، ٢ / ٢٤٨ .
- ٧٧ - ابن هشام ، السيرة النبوية ، ١ / ١٣٤ قارن : المسعودي ، علي بن الحسين ، التنبيه والاشراف ، عني بتصحيحه ومراجعته : عبد الله اسماعيل الصاوني ، (بغداد : ١٩٣٨) ، ١٨٠ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ١ / ٦٤١ - ٦٤٢ .
- ٧٨ - ابن هشام ، السيرة النبوية ، ١ / ١٣٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢ / ١٧٧ .
- ٧٩ - المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ١٨٠ .
- ٨٠ - العلي ، محاضرات ، ١٥٦ .
- ٨١ - محمد بن جرير ، تاريخ الامم والملوك ، ط٢ (بيروت : ٢٠٠٣) ، ١ / ٥٠٨ .
- ٨٢ - حتي ، تاريخ العرب ، ١ / ٣٦ .
- ٨٣ - حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، ١ / ٦٢ .
- ٨٤ - ابن خلدون ، العبر ، ١ / ١٣٦ .



- ٨٥ - المصدر نفسه ، ١ / ١٤٨ .
- ٨٦ - سالم ، تاريخ ، ٢٠ .
- ٨٧ - النص العصبية القبلية ، ٧٦ .
- ٨٨ - العلي ، محاضرات ، ١ / ١٥٦ ، الملاح ، الوسيط ، ٣٨٢ .
- ٨٩ - الملاح ، الوسيط ، ٣٨٢ .
- ٩٠ - ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٢ / ٢٧١ . الملاح ، الوسيط ، ٣٨٤-٣٨٥ .
- ٩١ - المصدر نفسه ، ٢ / ٢٧٥ .
- ٩٢ - اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب ، تاريخ اليعقوبي ، (النجف : ١٣٥٨هـ) ، ١ / ٢١٤ .
- ٩٣ - ابن هشام ، السيرة النبوية ، ١ / ٢٥ .
- ٩٤ - النص ، العصبية القبلية ، ٧٧ ؛ الملاح ، الوسيط ، ٣٨٧ .
- ٩٥ - ابن هشام ، السيرة النبوية ، ١ / ١٣٠ .
- ٩٦ - الطبري ، تاريخ الامم ، ١ / ٥٠٨ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ١ / ٦٢٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢ / ١٧٥ .
- ٩٧ - الكامل ، ١ / ٦٢٣ .
- ٩٨ - المصدر نفسه ، ١ / ٦٢٣ - ٦٢٤ .
- ٩٩ - حتي ، تاريخ العرب ، ١ / ٣٦ ؛ سالم ، تاريخ ، ٢١ .
- ١٠٠ - الملاح ، الوسيط ، ٣٨٨ .
- ١٠١ - المرجع نفسه .
- ١٠٢ - ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ١ / ٣١٢ .
- ١٠٣ - الملاح ، الوسيط ، ٣٨٩ .
- ١٠٤ - سورة الشورى ، آية : ٣٨ .
- ١٠٥ - الحميري ، محمد عبدالمنعم ، الروض المعطار في خبر الاقطار ، ط ٢ ، (بيروت : ١٩٨٤) ، ١٦٣ .
- ١٠٦ - سورة الفتح : آية ٢٦ .
- ١٠٧ - النص ، العصبية القبلية ، ١٧٤ .
- ١٠٨ - معروف ، ناجي ، اصالة الحضارة العربية ، (بيروت : ١٩٧٥) ، ٤٥ .
- ١٠٩ - ابي الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، (بلا . ت) ، ١ / ١٥٦ .
- ١١٠ - سورة الحجرات : آية ١٣ .
- ١١١ - حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، ١ / ٢٣٦ ؛ حتي ، تاريخ العرب ، ١ / ١٦٦ .
- ١١٢ - العلي ، محاضرات ، ١ / ١٢٨ .
- ١١٣ - سورة آل عمران : آية ١١٠ .
- ١١٤ - النص ، العصبية القبلية ، ١٧٧ .
- ١١٥ - فيصل ، شكري ، المجتمعات الاسلامية في القرن الاول ، (بيروت : بلا) ، ٣٠ .
- ١١٦ - سورة الاسراء ، آية ٣٣ .
- ١١٧ - حتي ، تاريخ العرب ، ١ / ٣٥ .